خدمة العروض لإظهار معجزات القرآن الكريم

د/ محمد صغير آدم
قسم اللغات الإفريقية ، وحدة اللغة العربية ، جامعة القلم ، كشنه

Abstract:

The paper which was entitled as: The Prosodic Services to the Holy Quran" discusses the contradictions of Arabs and their disapproval of the Holy Quran which they considered as a poetry and Prophet Muhammad (SAW) as a poet, Allah (SWT) proved them wrong and protects His Glorious Quran and His Great Messenger (SAW). The Prosodic works by Sheikh Khalil bn Ahmad (who lived in the 2nd century AH) differentiates between poems and prose in the literary terms, even though the two of them have similarities in some characteristic features. Therefore, the verses of the Glorious Quran were different with the poetic stanzas. Finally, the contributions of this great Imam solve the problems of early Arabs contradictions toward the Holy Quran and Prophet Muhammad (SAW).

مستخلص البحث:

المقالة بعنوان: خدمة العروض لإظهار معجزات القرآن الكريم عبارة عن اسهامات الشيخ الخليل فيما يُبرز بها معجزةَ الرسول الكريم وكتاب الله العزيز في الردِّ على كفار قريش لإنكارهم وبما يزعمون؛ أن القرآن الكريم شعرٌ والرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه شاعرٌ. معاذ الله أن يكون الأمر كما زعموا. وقد دافع الله سبحانه وتعالى كتابه العزيز وصاحبه صلى الله عليه وسلم، إذ يقول في محكم تنزيله؛ "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ". يس:69. وقال عز من قائل؛ "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ". الحجر: 9 قد ألهم الله سبحانه وتعالى الخليلَ بن أحمد الفراهيدي في القرن الثاني الهجري، حتى أبرز به الإعجاز القرآني وأظهر بفنه معجزةَ صاحب البعثة النبوية الشريفة صلوات الله وسلامه عليه. وقد اختتم البحث باسهامات هذا السيد الجليل التي حلّلت به المشاكل التي واجهها الإسلام والمسلمون في أمر كتابهم العزيز وشأن نبي الأمة عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

مقدمة:

لا يخلو الكلام من احدى الفنين، إما الشعر أو النثر ولكل منهما خصائص ومميزات التي تميزه من غيره. والقرآن الكريم كلام الله المنزل على رسوله الكريم للتبيان والإعجاز، لا يحكمه النظم الإيقاعي كما هو حال الشعر، إذْ هو ليس بكلام عادي ولا بقول شاعر قليلا ما يؤمنون، كما أشار إلى ذلك مولانا سبحانه وتعالى.

والسؤال الطارئ هنا هو لماذا يتّصفه كفار قريش بصفات تخص الشعر؟ ويزعم بعضهم على أنه شعر والرسول الكريم شاعر؟ وهل هناك سمات شعرية يتصف بها القرآن الكريم حقيقة؟ حتى يتصفه كفار قريش بالشعر؟ معاذالله أن يكون القرآن شعرًا ما كان الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم شاعرًا.

الشعر العربي:

وكان الشعر العربي، في عهد الجاهلية، ديوان العرب، وعلمهم الذي لم يكن لهم علم أصح منه. يتميز بالوزن والقافية في مجمل أنماطه، وفي مختلف أجياله، مع أنه جاءت بعض المحاولات المعاصرة خالية من الوزن والقافية، إلا أنها في الواقع محاولات لا يمكن أن تحسب على الشعر في شيء. لكونها سقطت في مجال النثر، لأن أبرز ما يفرق بين الشعر والنثر هو الوزن، ولا شيء آخر غير الوزن. وما عدا ذلك فهي عناصر مشتركة بينهما.[1]

النثر الفني:

وهو الذي يخضع لنظرية الفن، يغلب عليه الأسلوب الفني الذي يحتوي على عناصر فنية كالأفكار وحسن الصياغة وجودة السبك ومراعاة جودة اللغة ولا يفتقد العاطفة والخيال. والنثر العادي، يدور في كلام الناس أثناء المعاملة يوميا، وهو الذي يُعرف بلغة التخاطب والتفاهم بين الناس.[2]

ومن أنواعه؛ القصة والمقالة والخطبة والمسرحية النثرية وفنون النثر الوصفي كالنقد الأدبي وتاريخ الأدب والمقارنة.

الفرق بين الشعر والنثر:

وكان من الصعب تتبع أقوال العلماء في هذا المجال، ولكن ابن خلدون يرى أنه يشمل كل من النثر والشعر على فنون ومذاهب في الكلام، من أغراض الشعر المدح والهجاء والرثاء ويتميز بالتزام الوزن والتقفية. وفي النثر السجع الذي يُؤتى به قطعا ويلتزم في كلمتين منه قافية واحدة، ومنه المرسل الذي يُطلق فيه الكلام إطلاقًا ولا يقطع أجزاءً. بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها. يُستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور أو ترهيبها.[3]

القرآن الكريم:

والقرآن الكريم هو الكتاب الأرقى من حيث القيمة واللغة والدين نظراً لبلاغته وبيانه وفصاحته، وكان له أثر عميق بتوحيد اللغة العربية وتطويرها بمختلف آدابها وعلومها الصرفية والنحويّة. فأعجز الله به الخلق وتحداهم بالإتيان بشيءٍ من مثله، فعجزوا. نظر الكفار في آياته الحسنة وتعبيراته الرائعة وحسن صياغته وفصاحته وبلاغته وعرفوا أنه حقا ليس من كلام البشر، فكذبوه بدل تصديقه، وقالوا فيه ما قالوا وزعموا أنه من أقوال الشعراء القدماء تتلى عليه بكرة وعشية.[4]

وهو كتاب سماوي أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه بواسطة جبريل عليه السلام. وهو أعلى الكتب السماوية في الديانة الإسلاميّة، وهو كلام الله تعالى المنزل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والإعجاز، وهو آخر ما نُزل من الله سبحانه وتعالى. وهو الأرقى من حيث القيمة واللغة والدين نظراً لبلاغته وبيانه وفصاحته.[5]

وكان له أثر عميق بتوحيد اللغة العربية وتطويرها بمختلف آدابها وعلومها الصرفية والنحويّة، فكان النحاة فطاحلة اللغة العربية يتخذونه مرجعاً لهم في وضع قواعد اللغة العربية وتثبيت لبناتها. ويتألف من مائة وأربعة عشر سورة مصنّفة ما بين مدنية ومكيّة تبعاً لمكان وأسباب نزولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال فترة زمنية وصلت إلى 23 سنة تقريباً. وله أهمية كبرى في نفوس المسلمين.[6]

وهو ليس بمجرد كتاب فقد. بل منهج للحياة بأكملها، وكما أن قراءته وتلاوته والاستماع منه تعتبر عبادة يتقرب بها المسلم إلى ربه سبحانه وتعالى، ويعتبر بمثابة وسيلة لطمأنة القلب والنفس.

ومن الجدير بالذكر، أنّ القرآن الكريم ينظّم أمور حياة المسلم في كافّة مجالاتها، فلم يترك جانباً إلا وتطرّق فيه مُبْدِياً الحكم الشرعي. ومن الأمور التي ميزّت القرآن الكريم عن غيره من الكتب المنثورة والشعر المنظوم، أنّه محفوظ من الله سبحانه وتعالى بقوله :

"**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**" الحجر: 9. وهو غير قابل للتحريف.

ومن خصائصه أنه كتاب رباني، ينفرد بهذه الخاصية، فهو كتاب مُنزل من ربّ العالمين إلى الناس أجمعين، وقد أوحى الله سبحانه وتعالى بهذا الكتاب بواسطة الوحي، أرسل جبريل عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم به.

وهو كتاب مبشِّرٌ ومنذرٌ في آن واحد، تلتمس ذلك أيها الأخ إن تناولت آياته وشاهدت أساليب التبشير فيه بالنعيم والأجر والثواب، ومنذرٌ من عقاب الله تعالى وعذابه.[7]

وقد تكفّل الله سبحانه وتعالى حفظه من إدخال أيّ تغيير أو تحريف عليه حتى لا تشوبه أي شائبة من الأخطاء الإنسانيّة، لأنّه محفوظ من الله سبحانه وتعالى في صدور الرجال. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لكونه كلامه عز من قائل. ويتضح ذلك جليًا حينما نرى أنه لم يترك جانبًا من جوانب الحياة الإنسانية دون تقديم قاعدة شرعية بشأنه، أو عن الكيفيّة التي يجب أن يكون عليها. وهو الحق المطلق والصادق المبين، ومن المستحيل أن يتخلّله كذب بكل ما جاء به من أخبار الأنبياء والأمم السابقة والقصص.

الخليل بن أحمد الفراهيدي:

وقد ألهم الله سبحانه وتعالى الخليل بهذا الفن الجليل ليخدم به القرآن الكريم ويميّزه من الشعر العربي الذي يشاركه في كثير من فنونه. إذ كانت بعض آياته تأخذ وزنا من أوزان الشعر العربي، يساهم به مساهمة فعالة ويحاول محاولة جبارة على تمييز تلاوة القرآن الكريم من إنشاد الشعر والتغني به، ويتمكن من أن يفرق بين نغماتهما وإيقاعاتهما ويمحو بذلك الادعات الشنيعة في اتصاف القرآن بالشعر مهما أخذت بعض آياته أوزانًا من الشعر وسَجْعَه وغير ذلك من الانطباعات والشعور المتأثر.[9] معاذ الله من أن يتصف كتاب الله بالشعر، والرسول العظيم بشاعر. يقول الله عز من قائل: "**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ**". يس:69. مؤسس فن العروض ورائده، الذي استنبط قوانينه وأصوله وحصر فيه أشعار العرب، وحدّد أوزانه في خمسة عشر بحرًا، فأدركه تلميذه الأخفش بوزن سماه بحر المتدارك، فتم به عددها ستة عشر بحرا. وكان له معرفة بعلم الإيقاع والأنغام وبناء ألحان الغناء على موقعها وميزانها. وضع أساسه لبواعث دفعته إلي ذلك، منها أنه حريص على الشعر العربي وأحكامه بعد أن ظهرت بوادر التلاعب بأوزانه وقوافيه على ألسنة المولدين والأعاجم.[10]

علم العروض:

وقد اشتهر عدد بالغ من الشعراء الجياد في العصر الجاهلي، ومنهم أصحاب المعلقات الذين كُتبت قصائدهم بماء الذهب وعُلقت على أستار الكعبة لجودتها. وكانت العرب تفتخر بها وبأصحابها. وما زال الشعراء يقرضون الشعر حتى في عصر البعثة النبوية ونزول الوحي على محمد صلوات الله وسلامه عليه.[11]

وإن دل هذا على شيئ، إنما يدل على أسبقية الشعر من القرآن الكريم الذي نزل بعد فترة من الرسل.

خدمة العروض للقرآن الكريم:

نظرا إلى استنباط هذا الفن العظيم في القرن الثاني الهجري وتمييزه من تلاوة القرآن الكريم وتجويده من إنشاد الشعر والتغني به، يدل دلالة واضحة على أنه فن يخدم كتاب الله عز وجل، وذلك لأن القرآن الكريم يشارك الشعر في كثير من فنونه، مثل حسن الصياغة وروعة البلاغة والبيان والفصاحة وغير ذلك مما جعل الكفار يرون صاحبه شاعرًا. لذلك يقولون إنه شعر، معاذ الله إنه ليس بشعر، وهو كلام الله عز وجل المنزل على الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه.[12]

والإمام الخليل رحمه الله ساهم مساهمة فعالة حيث حصر الشعر العربي وحدد أوزانه في ستة عشر بحر. وقد تتبع الأشعار عبر العصور الأدبية الغابرة، فوجد أوزانها لا تجاوز العدد المذكور.

هذا، ومن الطبيعي أن تجد بعض العبارات النثرية موزونة، إذًا، ولو اتخذ التعبير العادي أو الفني وزنًا من أوزان الشعر لا يُعتبر شعرًا. لأن للشعر خصائص ومميزات تميزه من غيره. وهذا يدل على أن بعض الآيات في القرآن التي تأتي موزونة، حتى يُتغنى بها تلاوةً وترتيلاً، وأحيانًا تأتي مسجعة مشبهةً بالقوافي الشعرية لا تعتبر شعرًا. وإن دل هذا على شئ، إنما يدل على أن ما يحدث في الآيات من الموازين لا تجعل القرآن الكريم يكون شعرًا ولا يُعتبر صاحبه شاعرًا قليلا ما يؤمنون.

وفي الحاصل أنه قد ذم القرآن الكريم الشعرَ في كثير من الآيات والأحاديث دفاعا عن نفسه وعن صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم عليه لا تحريمًا. لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أحيانا يمدحه ويشجع الشعراء في عصره ويقول؛ "إن من الشعر لحكمة وإن من البيان الحسر". وقد حدث ذلك بعد سماعه أبيات زهير بن أبي سلمى. وكان كثيرًا ما يكرر هذا البيت على غير ترتيبه أو نظامه، ويقول أبوبكر الصديق؛ أشهد أنك رسول الله، وما أنت بشاعر يا رسول الله، والبيت يقول:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً *** ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويقول الرسول الكريم؛ على أي حالٍ ما أنا بشاعر.[13]

ومن أشهر شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم في قيد حياته حسان بن ثابت وكعب بن زهير بن أبي سلمى وعدد كبير من شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن المعروف أن القرآن الكريم كتاب سماوي أنزله الله سبحانه وتعالى على عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه، ويتعبد به عباده المسلمون. ويتقربون به إليه جل وعلا قراءةً وتلاوةً واستماعًا له.

الخاتمة:

وفي خلاصة هذا القول، يُلاحظ الدارس اسهامات عروضية عديدة ثبتت من استنباط الخليل هذا الفن حمايةً لكتاب الله العزيز الحكيم وإبرازًا لمعجزة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحابه الكرام. ظهرت المعجزة الخالدة بعد فترة من الزمن، حيث يوجد الشعر والشعراء في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي ولم يكن فيها الخليل ولا عروضه. وسوف يبقى القرآن الكريم مدى الأيام خالدًا بإعجازه العجيب، وكان وعدًا من الله سبحانه وتعالى إلى يوم تقوم الساعة، وذلك مصداقًا لقوله تبارك وتعالى: "**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**" الحجر: 9.

ومن نتائج هذا البحث المتواضع ما يأتي:

- أنه قد أبرز الفرق الملموس بين الشعر العربي والنثر الفني
- مع أنهما يشتركان في بعض الفنون الأدبية كحسن الصياغة وبراعة اللسان وفصاحته أو بلاغته وإيثار العواطف، هذا وذاك لا يجعل القرآن الكريم يكون شعرا ولا نبيه شاعرا معاذ الله.
- تتخذ بعض آي الذكر الحكيم وزنا من الأوزان، هذا من طبيعة الكلام أحيانا يأتي موزونا ولو لم يُقصد فيه الوزن الوزن، لذا لا يعتبر شعرا.
- القرآن الكريم محفوظ من الله سبحانه وتعالى غير قابل للتبديل ولا تحريف والشعر على عكس ذلك.
- آيات القرآن الكريم مسجعة وأبيات الشعر مقفى، شتان ما بينهما.

وإن دل هذا على شئ، إنما يدل دلالة واضحة على أن علم العروض جاء خدمةً لكتاب الله العزيز، وإبرازًا لإعجازه البياني، ورعايةً لمعجزة صاحبه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. والله أعلم.

الهوامش:

1 أبو ديب، كمال (دكتور)،1974م: "في البنية الإيقاعية للشعر العربي"، نحو بديل جذرى لعروض الخليل، دار العلم للملايين، بيروت.
2 أبو فراس النطافي؛ "التدوير وبحور الشعر"، مجلة جامعة الملك سعود، م:6، الآداب(2)، (533–556)
3 المرجع السابق
4 أبو الحسن على بن عيسى الربعي النحوي؛ "كتاب العروض". تحقيق أبى الفضل بدران 1421هـ.
5 أبو الحسن حازم القرطاجني: "الباقي من كتاب القوافي". تقديم وتحقيق د. علىلغزيوي.ط1 1417هـ.
6 إبراهيم، أنيس، (1972م): "موسيقي الشعر"، الأنجلو المصرية، القاهرة،
7 المرجع السابق
8 أبو محمد سعيد بن المبارك بن على بن الدهان النحوي:"الفضول والقوافي".
9 إبراهيم، أنيس، (1972م): "موسيقى الشعر"، الأنجلو المصرية، القاهرة، ط4.
10 أبو سعيد شعبان بن محمد القرشي الآثاري: "نظم الوجه الجميل فى علم"
11 المرجع السابق
12 أبو الحسن على بن عيسى الربعي النحوي؛: "كتاب العروض". تحقيق أبي الفضل بدران (1421هـ).
13 رواه البخاري ومسلم

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- كتاب صحيح البخاري.
- كتاب صحيح مسلم
- إبراهيم، أنيس، (1972م): "موسيقى الشعر"، الأنجلو المصرية، القاهرة، ط4.
- أبو الحسن على بن عيسى الربعي النحوي؛ "كتاب العروض". تحقيق أبى الفضل بدران 1421هـ.
- أبو الحسن حازم القرطاجني: "الباقي من كتاب القوافي". تقديم وتحقيق د. علىلغزيوي ط1 1417هـ.
- أبو ديب، كمال (دكتور)،1974م: "في البنية الإيقاعية للشعر العربي"، نحو بديل جذرى لعروض الخليل، دار العلم للملايين، بيروت.
- أبو محمد سعيد بن المبارك بن على بن الدهان النحوي:"الفضول والقوافي".
- أبو سعيد شعبان بن محمد القرشي الآثاري: "نظم الوجه الجميل فى علم"
- أبو فراس النطافي؛ "التدوير وبحور الشعر"، مجلة جامعة الملك سعود، م:6، الآداب(2)، (533–556)